خيال ..

قصة بقلم فاروق منيب

الوجوه الصغيرة امامه ، والفيظ المكتوم يكاد ينفجر بداخله ... تعب .. خمسة عشر عاما وهم يسخرون منه ... انت معلم التاريخ، أجيال المستقبل بين يديك ... ابتسم في سره ... كم من الوجوه مرت عليه ، ووجهه ثابت في مكانه ، مواكب الحياة تجري وراء بعضها، موكبه صامت حزين في هذه الغرفة البالية .. ظلاء جدرانها الاصفر يزغلل عينيه الكليلتين ، طوبها المتساقط يضرب رأسه ... كل يوم شتائم ونكد واحتقار . صاحب الفم الكئيب لا يسكت ، أوامر ... أوامر ، روحه الجافة تحلق في سمائه على الدوام ، والآن يجب أن يرفض ... ضميره الحي يستيقظ .. لا بد ان يقول لا .. لا . اني تعبت ... سوف يقفون معك ، حديثك الحلو يجذبهم . أنها مرة في كل عام ، يعود الملل الى قلبك بعدها ، لا يهم . جلس على مقعده ، ربما للمرة الاولى يشعر بالثقة تتسلل الى نفسه . الدرس ليس عاما.. أصبح يمس شغاف حياته ... نفخ الغبار المتراكم فوق المنضدة الكالحة . دق الارض بقدميه يجرب . نظر الى التلاميذ بتحد ، ثم بشفقة ، ثم بحنان . تطلعوا اليه صامتين متعجبين . نادى احدهم ، أمره ان يكتب عنوان الدرس ... مراجعة عامة . خاف التلميذ وهو يقول :

ـ لم ندرس عصر اسماعيل بعد !

ـ اسكت .

جفل عائدا الى مكانه . تشجع آخر . همهم يقصد التشويش :

ـ نريد ان نفهم ..

شخط فيه بقسوة :

ـ هذه الحصة أسئلة !

ما زال يجيب وهو يضع ساقا على ساق ، متخليا عن حماسته التقليدية في الشرح . يداه ثابتتان بجواره لا يرفعهما . صوته خافت واثق . يقطع به الكلمات والجمل في اطمئنان . اول طوبة سقطت من احد أركان الحجرة . ضحك التلاميذ . ظل مستمرا يتجاهل . دق الجرس معلنا بدء الدرس . تذكر صاحب الفم الكئيب . لن يسكت له بعد اليوم . سوف يختار الطريقة التي توافق روحه في التدريس . ملّ طرق الوزارة الثقيلة ! شعر بنغمة فخر واعتزاز تزهو بها نفسه . التاريخ أحلى شيء في الوجود . الناظر يريدني موظفا ناجحا ، أحصل له على احسن النتائج . التاريخ يسري في دمي . اين الايام الخالدة فيه ؟ لم يعد أحد يذكرها . اصابها العطن والنسيان . انبعث من الجهة المقابلة للمدرسة على ربوة عالية من اطراف المدينة هدير زاحف. مصنع النسيج يبدأ يومه هو الآخر ... منذ أن انشأوه وهو يرقب هديره كل صباح . لا يدري لماذا ؟! ربما لانه مل جرس المدرسة واصوات التلاميذ واوامر صاحب الفم الكئيب . سأل وملامح وجهه تتشكل باهتمام بالغ :

ـ ما اسباب الثورة العرابية ؟

رفع الجميع الاصابع . كلهم يعرفون . اذن لا داعي لهذا السؤال. هناك نقطة حاسمة تثير أشجانه على الدوام تملاه بالامل ابدا . يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب . ومن النافذة لمح الشجرة العتيقة تتوسط فناء المدرسة . كانت مخضرة الاوراق ، جذعها ثابت في الارض ، وفرعها ممتد في السماء ، لكنها شائخة عجوز . طالما جلس تحت هذه الشجرة يستعيد الذكريات . عشرات من الزعماء الصغار وقفوا في كنف ظلالها ينادون بالجلاء والحرية . أصبحوا الآن رجالا . شق كل واحد منهم طريقه في الحياة . يتفق ان يقابله أحدهم ، فيعرفه بنفسه ، ثم يدعوه للزيارة . داعبت النسمات اوراق الشجرة العتيقة . طافت بخواطره أحداث قديمة .

في العام الماضي صمم ان يلتحم بالناظر . أمضى يوما كاملا بجوارها يستلهم دفئها . تصور انه زعيم صغير يخطب ضد الناظر المستبد . من يومها وهو يسميها شجرة الحرية . في الليل صورتها المزدهرة تطوف بخياله . عاد هدير مصنع النسيج يرتفع في أذنيه من جديد . ودّ من كل قلبه لو اختبر حياة المصنع الغريبة عنه . ملّ جرس المدرسة . طوبة ثانية تسقط من الجدار المتداعي . اسرع يضرب المنضدة حتى يمنع الضوضاء . هاج التلاميذ ضاحكين . دخل الناظر محتدما . قام من مقعده وجلا . عوج الناظر فمه المتأزم ، ثم قال :

ـ زفت ... زفت ...!

أصبحا الان وجها لوجه . الذئب المفترس أمام الحمل الوديع . يسكت ، يكظم غيظه . لن يستطيع صاحب الفم الكئيب ان يجره للانفعال السريع . ضاقت جدران الحجرة حوله . كادت تخنق انفاسه . اصبح كالسجين يدرك انه حر ، لكنه لا يستطيع الخلاص . صهد الصيف يفح من الباب ونافذة الغرفة الضيقة . العرق يسيل من جبهته وذراعيه ، يصل الى ساقيه المرتعشتين الخائفتين . التلاميذ امامه ينتظرون . شيء ما في اعماقه ينهار ... يتفتت . وصله هدير مصنع النسيج فاحس بالدفء ، بتيار من الشجاعة يتسرب الى أعماقه ... تحرك ... تحرك ... قل شيئا ، عاد الى سؤاله القديم :

ـ ما أسباب الثورة العرابية ؟ قم ...

ـ اضطهاد الشعب ...
ـ وانـت ؟
ـ تدخل الاجانب ...
ـ وانـت ؟
ـ المطالبة بتشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبي .
ـ وآخر واحد على اليمين ؟
ـ اسقاط الوزارة المستبدة .

سر في أعماقه . رأى وجه الناظر مسودا وهو كظيم . هو يعرف وقع الثورة على نفسه . سوف يستمر في احكام الخناق حول رقبته . انه اللحظة أشبه بعرابي . هذه الساحة على ضيقها رحبة فسيحة ، يمتطي فيها جواده الاصيل . هؤلاء التلاميذ جنوده الاوفياء المخلصون . سوف يقفون معه . ان التاريخ يعيد نفسه تماما . أمسك قطعة الطباشير ، ثم كتب على السبورة ... الاستبداد هو السبب الرئيسي الوحيد للثورة العرابية ، اتفهمون ؟! وعاد يلقي ببصره عبر النافذة الى فناء المدرسة حيث تمتد شجرة الحرية . التفت ونشاط مفاجيء يهز أعماقـه :

اذا الشعب يوما اراد الحياة ...

وتقمصته شخصية عرابي مرة اخرى . ألقى نظرة على صاحب الفم الكئيب . خمسة عشر عاما وانت ذليل بين يديه ، لم تذق طعم الراحة أبدا ... يستعبدك كالحمار ، ليس في فمه الا كلمة زفت ... زفت ...يلاقيك بها في الصباح ... يودعك بها في المساء ... يمنع عنك كل شيء ... حتى نسمات الهواء التي كانت تصلك من خلف الحجرة .. يا عبد المعطي اغلق النافذة التي تتسرب منها . لو تركوا له الحرية لوضع في رقبتك الحبل ، ثم أحكم جذبه حتى يراك ميتا ... يتشفى فيك ... يود أن يمتص رحيق حياتك لاخر نقطة ... عرقك يسيل هنا منذ خمسة عشر عاما يا عبدالمعطي ... يداك تعبتا حتى أصبحتا قطعتين من الخشب المحروق . كلت عيناك . الاشياء أمامك نائمة حائرة مهتزة . والصوت ... لم يعد صوتك سوى حشرجة بالية ... اصبحت نفاية يا عبد المعطي ... اصبحت نفاية !. وانتقل الى الساحة مرة اخرى .. لكنك تستطيع أن تفيق الان ... ان تعلن العصيان ... أن تقول لا ، لا ، وسقطت طوبة من جدار الغرفة ... القيظ كائن متصلب يتحدى . الناظر يمسح عرقه بمنديله . التلاميذ ينتظرون . وركب الجواد على جناح الخيال . أمسك سيفه بيده يلوح به في الهواء وتذكر ، ماذا قال الخديو لعرابي يا أولاد ؟...

ـ ما اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟
قال عرابي :
ـ ....
ان التلاميذ يحفظون اسباب الثورة عن ظهر قلب . اذن فليكمل :
ـ وماذا كان رد الخديو على مطالب عرابي يا أولاد ؟!.

حملق الناظر فيه بدهشة . لم يعره عبدالمعطي التفاتا ، كان يناضل خوفه بشجاعة . مر العمر وما بقي منه الا القليل . ماذا يستطيع صاحب الفم الكئيب ان يفعل لك ؟!. خمسة عشر عاما وانت مستكين خائف جبان ... خسرت الروح والقلب ... وما في يدك شيء تواجه به ايامك القادمة .. تشجع لا تخف .. المثل الصيني يقول : ان رحلة طولها الف ميل تبدأ بخطوة واحدة ... وانت تقول : ثورة نفس أبية تبدأ بحركة واحدة ... وضرب الارض بقدمه ، ثم قال :

ـ رد الخديو على عرابي يا أولاد ... كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها .. وأنا قد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي واجدادي ... وما أنتم الا عبيد احساناتنا !.

احتقن الدم في وجه الناظر . قال والرعشة العصبية تتملكه :
ـ ما هذا التركيز على الثورة العرابية بالذات ؟!
ـ لانها ثورتنا كلنا ...
ـ وعصر اسماعيل ؟!.
ـ رمز عارنا ...
ـ يجب أن توزع الاسئلة
ـ هذا من شأني وحدي ...
ـ لا تعجبني طريقتك في التدريس
ـ انها الوحيدة التي تجذب عقول التلاميذ !
ـ هل تسير حسب المنهج المقرر ؟!.
ـ ليس هناك منهج ... ما أشرحه اليوم هو منهجي !.
ـ التلاميذ لا يستفيدون من طريقتك .
ـ اسأل أحدهم !
قال الناظر مشاورا باصبعه لتلميذ :
ـ هل فهمت شيئا ؟
قال التلميذ :
ـ الافندي ترك عصر اسماعيل
ـ وانـت ؟!
ـ لا ... اصل الافندي بيشرح وهو نعسان !
وآخر واحد على الشمال :
ـ لم أحفظ غير الشعر ....

وهبطت حماسته الى أقدامه . هؤلاء الاشقياء يخذلونه . فك رباط عنقه المبلل بالعرق . نطح رأسه في الهواء يفسح لنفسه طريقا . لاحت اشباح الهزيمة ... يا أولاد الكلاب .. هذا جزائي .. أنا لا يهمني الدرس .. تعبت من الشرح والحفظ ... كنت أريدكم اليوم شجعانا .. تقفون معي .. ألا تعرفون من انا ؟ وغطت عينيه سحابة ظلام ، لم يعد يرى شيئا . غرق في تردده ورعشته ، سقط السيف من يده . الجنود يهربون من الميدان أمامه . الساحة خاوية ، يريم عليها سكون حزين . الجدران تضيق حوله وتضيق . قلبه يضرب في صدره كالفرس الهارب من المعركة ، وجه عرابي لا يفارق خياله رغم الضباب المتكاثف حوله . انه لم يرد على الخديو بعد . نكس رأسه الى الارض . غابت نظراته بين عيون التلاميذ الذين خذلوه . ذبلت حلاوة الحماسة من نفسه . القيظ وأشباح الهزيمة وصاحب الفم الكئيب وهؤلاء الكلاب يتراقصون في ساحته . انتزعه الناظر من عالمه :

ـ ارجع الى عصر اسماعيل ...
ـ لا استطيع الرجوع الى الفساد ...
ـ انه منهج الوزارة !
ـ الوزارة مخطئة ؟!.
ـ هل تريد أن تملي رأيك ؟
ـ نعـم ...
ـ بعد خمسة عشر عاما ؟!.
ـ نعـم ...
ـ وأكل العيش ...
ـ ....

وعاد مسرعا الى ساحته . الخراب شملها في عز المعركة . البوم حوم فيها . انوحشة قطعت اللحظات الخالدة التي كان يود ان يعيشها التاريخ لا يمكن ان يعيد نفسه ابدا . التاريخ يحدث مرة واحدة فقط . عرابي مات يا عبدالمعطي ... ولن يلد التاريخ « عرابي » آخر . خنفس خان عرابي ... وهؤلاء الصغار خانوك . وشملته حسرة عارمة . أيقظت حواسه صفارة مصنع النسيج في الربوة المقابلة . انحدر اليه الهدير عاليا خفاقا يطغى على جرس المدرسة . أقدام الرجال الاقوياء تهز الارض .. الوجوه الصلبة تتحدى المتاعب الصغيرة ... ليته وقف بينهم ، لن يخذلوه مثل هؤلاء الاشقياء الصغار ، ولا مثل الاشقياء الكبار ... كم من مرة أثار الموضوع أمامهم ... ان شجرة الحرية تظل يانعة مخضرة ، ويجب أن تبقى أحرارا في مدرستنا يا زملاء . كان يقابل بالسخرية . ذات مرة كشف له عطية أفندي عن جرح قديم من ساقه أصيب به في مظاهرات الدستور .. قال له ... انه مناضل قديم ، الايام جارت عليه فاستسلم لها . وحدثه الشيخ حسن عن اشتراكه في ثورة ١٩١٩ ، فلما فشلت ، عكف على أكل العيش . ولا يدري لماذا قفزت الى ذهنه كلمة سعد زغلول الشهيرة « مفيش فايدة يا صفية ... مفيش فايدة ! » صاحب الفم الكئيب لا يزال ايضا في الحجرة يتولى عنه الشرح للتلاميذ . ان اصلاحات اسماعيل لا تحصى يا أولاد ... نستطيع ان نطلق على عصره العصر الذهبي ، فيه أنشئت الترع والمصارف والجسور ! كان يريد ان يجعل من مصر قطعة من اوربا . الذباب يدخل الى الحجرة المعتمة . القرف يحط على رؤوس التلاميذ . رائحة المجاري ترتفع الى الانوف . جلس الناظر مستخذيا ، قال في سره : ما أتعسني ... اردت ان انتقل بهم الى اوربا ... فاذا الذباب والرائحة تخذلني . دق جرس انتهاء الدرس . سحب الناظر قدميه وهو يلعن :

ـ زفت ... زفت ...

لم يلتفت اليه . شدت قدماه الى الارض . توقف طويلا يفكر . رمق شجرة الحرية من بعيد ، لن أجلس تحت ظلالها مرة أخرى . الفروع المخضرة فقدت لونها ، الجذع المتين هش لا يصمد للاحداث ، الجذر الضارب في الارض عاجز عن امتصاص الغذاء ... لم أعد استطيع ان اعيش على الذكريات . الفم الجائع لا تسده حكاية حلوة ، العين الكلية لا تحتاج الى لمبات النيون . القدمان الحافيتان يلسعهما الاسفلت اللامع ... الاذن الصماء لا تتذوق الموسيقى .. أريد شجرة أخرى تطعم الفم ، تسر العين ، وتنعش الروح الراكدة ... يرتاح بجوارها الجسد المكدود .. يطمئن الى ظلها الحران ... جرس المدرسة يدخل الملل الى نفسي . هدير المصنع يطربني ... ولكن لا بأس ان نكرر الى حين ما حرمنا صاحب الفم الكئيب أن نقوله للاولاد . قال عرابي للخديو يا أولاد ... لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا أرثا وعقارا ، فوالله الذي لا اله الا هو اننا لن نورث ولا نستعبد بعد اليوم ... لا بأس أن نكرر ... أن نكرر ..

القاهـرة

فاروق منيب

روايـات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	آلان بيتون	العراب	ماريو بوزو
زوربـا	نيكوس كازنتزاكي	الشوارع العارية	فاسكو براتوليني
انـا وهـو	البرتـو مورافيا	الجحيم	هنري باربوس
الانتباه	البرتو مورافيا	ماريانا	لوركـا
مدام بوفـاري	غوستاف فلوبير	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
السفيـر	موريس ويست	نساء طـراودة	جان بول سارتر
قصة حـب	اريك سيفال	تمت اللعبـة	» »
الموت حبـا	بيار دوشين	مسرحيات سارتر	» »
الموت السعيـد	البير كامو	الفئيـان	» »
		دروب الحرية ٣/١	» »